مدركا لكوني في حالة من عدم الرضى، والبحث الطويل الأمد فمفهومي الشامل كان غير ناضج، ومن منطلق بشري. في سن السادسة عشر كنت مأخوذا بكتابات نيتشة[١]، وكنت استمتع جداً بمطالعة «برتراند رسل»[٢].

لكن كطالب حقوق في كلية «هول الجامعية» في سن الثامنة عشر خضعت لتحوّل إنجيلي قوي تحت تأثير صورة المسيح في العهد الجديد. لأيام عديدة كنت في حالة ضياع ذهني، وعاطفي شديد، مما جعلني أكثر فأكثر مدركا «لحقيقة سامية»، وواقع عظيم يلحّان علي، ويطالبان بتعريفي وتفاعلي. في البداية كان هذا طلبا مزعجا، ومتحديا وامرا غير مرحب به بشدة ظنا مني أنه لم يكن سوى ثورة في الهوية الشخصية. لكن بعد ذلك الطلب المزعج اصبح دعوة معتقة. فالحقيقة التي كانت تلحّ علي كانت إضافة الى ذلك جذّابة بشكل لا يقاوم، ودخلت بسعادة كبرى، وإثارة في عالم الدين المسيحي. بعض أصدقائي الطلاب كانوا أعضاء في منتخب الزمالة المسمى «منظمة المخيم الإنجيلي»، فضممت قدري إلى قدرهم، قبلت وبدون مناقشة الدين الإنجيلي بكل تفاصيله: الإلهام اللفظي للإنجيل، خلقا وتنزيلاً، يسوع الإله المتجسد بالابن المولود من عذراء، المدرك لطبيعته الإلهية، والقائم بمعجزات عبر هذه القوة، المفتدي للإنسان بدمه من الإثم والذنب، البعث الجسدي ليسوع، الصعود والعودة المستقبلية بمجد، الجنة والنار.

انتقلت الى جامعة أدنبورغ Endinburg لدراسة الفلسفة التي كنت قد سحرت بها قبل الذهاب الى المعهد بسبب عزمي الالتحاق بكهنوت كنيسة مشيخية إنكلترا خاصة؛ لأن اصدقائي في المنتخب كانوا مشيخيين. هذا، و بالاضافة الى الجلسات المنتظمة للصلاة، و مجموعات دراسة الانجيل في الاتحاد الانجيلي في ادنبورغ «Endinburg» التي شغلت مقدارا كبيرا من وقتي، انهمكت ايضا في نشاطاتها الأخرى كإدارة مهام جناح استشفائي في مستشفى أدنبورغ الملكي.

على اية حال، كان هذا عام ١٩٤١ عامي الأكاديمي الثاني، وبداية الحرب العالمية الثانية في أوروبا. ساهمت سابقا في هول «hull»، برفقة طلاب آخرين، في رصد

الحرائق، وكنت في الخدمة خلال الليالي الثلاث حيث دمر «مركز هول hull» بكامله من جراء القصف. في صيف ١٩٤٢ طلبت للخدمة العسكرية. مع ان معظم اصحابي الطلاب تقريبا انضموا الى القوى العسكرية، وجدتني أرفض حمل السلاح لالتزامي بتعاليم الدين المسيحي. الطريقة التي فكرت بها آنذاك كانت ببساطة أن تعاليم يسوع غير منسجمة مع ضخامة عنف الحرب. وأوّد هنا ان اضيف انه بصرف النظر آنذاك عن تبرير اي صراع خاص - الحرب العالمية الثانية كانت في ظروف التهديد النازي لأوروبا ربما مبررة للجهة الحليفة كأية حرب تقريبا - الحرب بين الأمم هي جنون جماعي للقتل، وللتشويه، ولتدمير أصولنا البشرية المشتركة. قد يقول مراقب من العالم الخارجي إنه في حرب عالمية، يغضب الجنس البشري لحين، فيقضي على كثير من نخبة جيله الحاضر، يشوّه مستوى الحضارة الذي توصل إليه، وحتى أنه يمكن له في آخر الأمر أن يدّمر نفسه.

الطريقة الوحيدة للتعبير عن الرأي كانت فعلا رفض المشاركة في الحرب. بينما كانت مهمة بعضنا الآخر المشاركة فيما كان بالنسبة لهم أهون الشرين. على أية حال، لم أستطع التملص من خيار الحرب نفسها، بل فقط من خيار إرادة القتل؛ لذا انضممت الى وحدة إسعاف الأصدقاء، وهذا الخيار كان موافقا عليه من قبل مجلس المعارضين الدينيين. خدمت في وحدة إسعاف الأصدقاء خلال سنوات الحرب الثلاث الأخيرة - أولا في مستشفيات في لندن وأدنبورغ - ثم في اماكن متنوعة في مصر، إيطاليا واليونان.

شكوك عقلانية:

بعد الحرب عدت الى جامعة أدنبورغ للسنوات الثلاث الباقية من مقرر دراستي الفلسفية.

انضممت مرة اخرى للاتحاد الانجيلي، لكن سرعان ما وجدت أني لم أعد أنسجم معه تماما، تدريبي الفلسفي كان يقودني لطرح أسئلة خرقاء. مثلاً كيف، يستطيع احد ما فهم بقاء الشمس ساكنة «ليوم تقريباً» كما سُرِدَ في يشوع؛ ١٣:١٠ على ضوء معرفتنا

التعددية الدينية قراءة مسيحيانية

تأليف: جون هيغ

تعريب (عن الإنكليزية): سامية داهود إسماعيل

المحجة يقدّم جون هيغ في هذا البحث وجهة نظر تعدّدية للدين من وجهة نظر مسيحانية عن التعاليم التقليدية التي لا ترى إمكانية للخلاص بمعزل عن الإيمان الجلي بيسوع المسيح، وينطلق في محاولته هذه من أرضية أن كل الديانات تمتلك حقيقة واحدة، فمفهوم الخلاص، والتحرر الكوني، أو المحدود عند الأديان المتعددة ينطبق بالتساوي على الناس من مختلف الديانات حتى عند الأشخاص الذين لا يملكون دنيا، ولا فرق في ذلك بين المسيحيين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى. المحجة

يقدم المؤلفون الآخرون في هذا المحور وجهات نظر إما متحفظة، وإما دينية جد متحفظة. أنا لا أعرف في هذه المرحلة إذا ما كان أحدهم يتقبل كلمة «متشدّد»؛ لذلك أفضل عدم استعمالها، ولكن بخلاف رأيهم فإنني أقدم وجهة نظر اكثر تحرراً وانا سعيد لأن هذه المناقشة شملتني. مخطط البحث، يقترح أولا ان يكون موجها، لكن طبعا ليس حصريا الى جمهور مسيحي متحفظ؛ ولذا علي ان اتوجه أولا الى قراء ذوي افتراضات متحفظة. أجد من اللائق ان أبدأ بإخبار القراء عن خلفيّتي المتحفظة.

تجربتي في التحول ورحلتي الروحانية:

بدأت حياتي المسيحية كمتشدّد. عُمِّدتُ طفلا رضيعا في كنيسة إنكلترا، وكرّست نفسي صغيرا ومراهقا لخدمتها التي كانت بالنسبة لي مسألة ضجر غير متناه، (الشيء) المسيحي بأكمله بدا لي ميتا تماما، وغير مشوق، ولكن بالرغم من ذلك، كنت

الحديثة بعلم الفلك، وأن الأرض التي تدور بسرعة تقارب آلاف الأميال بالساعة كما اثبت علم الفلك الحديث تكف فجأة عن الدوران. بصراحة هذا مربك للعقل.

وفوق ذلك؛ هل يمكن للتطور البيولوجي ان يرفض، فقط لأنه مخالف لكتاب سفر التكوين، اليس هناك عدد كبير من التناقضات بين هذا النص الإنجيلي وذاك؟، وهل يمكن ان توجد حقا عبارة للحب اللامتناهي بإرسال غالبية الجنس البشري الى عذاب مخلد في الجحيم؟ وهكذا دواليك. ولكن وبالرغم من هكذا اسئلة توجه بصدق، بدا لي ان هناك نفوراً واضحاً من قبل الطلاب، وقيادة الكلية عند مواجهتها، شعور بأنها كانت خطرة، و لا ينبغي ان تطرح، وانها شكلت اغواء بالانحراف عن الدين. هكذا ابتعدت عن الحركة الطلابية الانجيلية المتحفظة، مع استمرار كوني لعدة سنوات، متحفظاً لاهوتياً.

وفي السنة التي تخرّجت فيها، أقرت لي منحة تعليمية تدعم خريجي الفلسفة التابعة لجامعة أدنبورغ للقيام ببحث علمي في «اكسفورد oxford»، استلمت هذه المكافأة، واصبحت أول طالب في «معهد أوريل Oriel» في اكسفورد يعمل لدرجة دكتوراة في الفلسفة بإشراف البروفسير (h.h. price برايس) وكتبت أطروحتي «الإيمان والاعتقاد» التي عدل عنوانها لاحقا الى «الإيمان والمعرفة» (faith and knowledge) بعد أكسفورد، درست لمدة ثلاث سنوات في «المعهد اللاهوتي للرهبان»، «كلية وستمنستر»، كامبردج westminster college Cambridge.

هناك أذكر انني صدمت بشدة بأحد الطلاب الذي جادل بان يسوع ليس مجسدا للإله، بل إنسانٌ مميزٌ، في نهاية المقرر الدراسي عيّنت قسيسا لرعية كنيسة الرهبان في انكلترا (بعد الاجتماع بالابرشيات ومن ثم الكنيسة البروتستنتية المتحدة)» في نفس الفترة تزوجت، وخدمت للسنوات الثلاث التالية في ابرشية قرية تقع مباشرة جنوب الحدود الاسكتلندية، و هناك استمتعت جدا بالعمل، وازدهرت الأبرشية، وولد طفلنا الأول.

على اية حال، ذات يوم وصلت رسالة غير متوقعة كليا من قسم الفلسفة في جامعة كورنيل، تسأل إذا ما كنت مهتما بالذهاب الى هناك، والعمل كمساعد بروفسير في

تدريس فلسفة الدين. ذهبنا الى هناك ونعمت جدا في كورنيل، حيث نشرت اول مقالة لي في جريدة الدين الاسكتلندية صدرت في آذار ١٩٥٨، وقد انتقدت فيه مقالة تحت عنوان «التناقض الظاهري للرحمة» لـ د.م بايليى «(D.M. Baillie,s)» «كريستولوجية الرحيل»، من مبدأ «الأرثوذكسية الخلقيدونية»[٣] بعبارات أخرى، لم أكن بعد قد ابتعدت عن الدين المتحفظ الذي كنت قد ابتدأت به. الانطلاق الأول الملفت للنظر حدث عام ١٩٦١، أثناء التدريس في معهد برنيستون Princeton عندما سألت إذا ما كان الاعتقاد بالتجسّد يستوجب الاعتقاد بالتاريخية الحرفية للولادة البتولية (عقيدة الحبل بلا دنس).

حتمية سيطرة العقلانية على الدين المسيحي:

سردت هذ الجزء من سيرتي الذاتية؛ لأبين للقرّاء المتشدّدين مدى تفهمي لنظريتهم، لأنها كانت ذات يوم نظريتي، فهي كانت نقطة انطلاقي، تبدلت تدريجيا نتيجة تأثير الاختبارات الفلسفية من جهة، وقراءة ودراسة العهد الجديد من جهة اخرى، هذا بالإضافة إلى محاولة التبشير بالإنجيل بطريقة مفهومة لرجال ونساء القرن العشرين العاديين بغض النظر عن أعمارهم.

تجربتي في التحول، بقيت بسيطة برغم إدراكها القوي للوجود الإلهي، الذي كان واعياً بعمق للحضور الإلهي، الذي كان خلاقا، ومنشطا، وباعثا للحياة في آن واحد. لكن الأفكار المتشدّدة التي يفترض التسليم بها دون نقاش انتهت منذ فترة وتحطمت، واستطيع الآن على اية حال أن أقول - ما لم يقله بعض المسيحيين المتحررين: - إن الجناح الإنجيلي المتعصب للمسيحية يؤدي دورا ناشطا في اعتراض الشباب، ودفعه خارج الفلسفة الانسانية[٤] العلمانية النافذة في ثقافتنا.

يمكن بعدة حالات، ان يكون جيدا اجتياز تحول متعصب شريطة ان يتم التمييز بين ما هو مقبول وما هو غير مقبول عقلا، على ان ينبذ في آخر الامر ما هو غير مقبول عقلا.

الأسلوب الديني في التعاطي مع الكتاب المقدس والوحي:

بعد التمييز كان علي ان اوضح بعد هذا الحد للقارئ المتعصب كيف اختلف عنه في مسائل الوحي، وصلاحية نصوص الكتاب المقدس. لا أظن انه من الممكن إثبات مسائل لاهوتية اعتمادا على اقوال الانجيل؛ الذي هو مجموعة وثائق مكتوبة خلال فترة تقارب الألف عام بواسطة أناس مختلفين، عاشوا في حقب، وبأحوال تاريخية وثقافية مختلفة الكتابات متعددة الأجناس مثل سجلات المحكمة (التي تعتبر تاريخيا محرفة ومزورة)، تعابير نبوية، ترانيم، رسائل، مقاطع يوميات، ذكريات يسوع التاريخي، صور أبدعها الإيمان بدلالاته الدينية، الكشف الرؤي الخاص بسفر الرؤية وغيره. التاليف البشري والخلفية التاريخية يجب ان تكون دائما مأخوذة بالحسبان أثناء استخدام نصوص الإنجيل. لا نحتاج اليوم مثلا، لتبني معتقدات «قبعلمية»، وفرضيات ثقافية لأناس عاشوا في الماضي البعيد في عالم بشري مختلف كثيرا. اذ كانوا يظنون بان الارض مسطحة، وأنّ الامراض الجسدية سببها الجن، ليس علينا ان نتبعهم في ذلك. ان ما يهم هو تجربتهم الدينية. الإله موجود معنا دائما وفي كل مكان، فوقنا تحتنا، وفي داخلنا. وعندما يكون الكائن البشري على نحو منفتح على الوجود الإلهي يكون عنده إدراك واستشعار حيوي نحو الله، هذا ما يسمى عندها وحيا. عادة ضمن تراثنا اليهودي -المسيحي يأخذ هذا الإدراك شكل اختبار بعض الأحداث الفردية في حياة أحدنا الشخصية. أما على صعيد الشعوب، فإن هذا الادراك يكون توسطا وكشفا لحضور وحيوية الإله. هكذا عاين أنبياء العهد القديم على نحو مميز بعض الأحداث في تاريخ اسرائيل كموجبات لوجود الإله على شكل إرشاد، مساعدة، تحذير أو عقاب. مثلا النبي ارميا راى هجوم الجيش الكلداني على القدس كوسيلة إلهية لمعاقبة اسرائيل الكافرة. لم يكن هذا - على ما اعتقد - تفسيراً دينياً ارتجاعياً، بل تفسير للطريقة التي اختبر فيها النبي في الواقع الحدث آنذاك. دون شك عاين آخرون الحدث نفسه من زاوية أخرى، سياسية، أو اقتصادية محضة. الطريقة الدينية لاختبار صلاحية الكتاب المقدس لا تنفي هذه الطرق العلمانية، بل تضيف طبقة اخرى من المعايير الى

التجربة. هكذا كان للكلدانيين أهدافهم البشرية الخاصة بهم على نحو خاص، لكن النبي ارميا عاين هذه اللحظة التاريخية متضمنة هذه الأهداف البشرية كخدمة هدف الهي.

الفرق بين الأنماط الدينية، والعلمانية لاختبار نفوذ الكتاب المقدس يحدث في العنصر التأويلي خلال تشكيل التجربة. غير الخاضع لتجربة دينية[٥].

اعتراف العهد الجديد بيسوع:

وماذا عن العهد الجديد؟، هو مجموعة من الوثائق المسيحية من القرن الاول بعد الميلاد، ما يرجع بنا بعيدا الى يسوع التاريخي، ومنشأ النصرانية. الوثيقة الأقدم، رسالة بولس الاول الى التسالونيقيين Thessalonians على الارجح يعود تاريخها الى ما يقارب الخمسين سنة بعد الميلاد. واقدم انجيل هو انجيل متى ويعود تاريخه الى حوالي ٧٠ سنة بعد الميلاد. علينا ان لا نعتبر هذه الكتب الأربعة على انها شاهد عيان ينقل من خلال مراسلين في الحال.

كانت مكتوبة بين اربعين وسبعين سنة بعد موت المسيح من قبل اناس لم يكونوا حاضرين شخصيا في الاحداث التي يصفون، كلها اعتمدت على مصادر لا يمكن اعتبارها شاهد عيان.

علاوة على ذلك، حدثت تطورات مكثّفة ضمن الجالية المسيحية خلال تلك العقود التقويمية. على اية حال، فإن الوثائق كلها وثائق اعتقادية. كلها ترى يسوع كتوسط للوجود الإلهي، ودعوة الهية للعيش كمواطنين في المملكة القادمة. أقدم تعريف للتفاعل الايماني الذي يظهر المسيح على انه نبي، وشاف مليء بالروح هو في العبارات المنسوبة الى الرسول بطرس في اعمال الرسل: «يا رجال اسرائيل اسمعوا هذا الكلام. إن يسوع الناصري الرجل الذي اشير لكم اليه من الله بالقوات والعجائب والآيات التي صنعها الله على يديه فيما بينكم كما انتم تعلمون»[٦] هذا الرجل الملهم من الله يظهر انه قد فهم دوره كآخر نبي، معلنا قدوما وشيكا للمملكة الالهية الى الارض. والكنيسة القديمة

عاشت توقعا متحمسا لعودته، كأداة إلهية لتولي المملكة. مع اضمحلال هذا التوقع، كان يسوع ممجدا في ذاكرة طائفية، رفعته من نبي مرسل، نبي بعث وحساب الى مرتبة الهية.

وثائق العهد الجديد كتبت خلال المراحل القديمة لهذا التطور، وحوت مشاهد واحداثا سابقة ليسوع البشري الإنساني، وتوقعات المسيح الالهي لمذهب الكنيسة الرسمية الحديثة معا. لست متاكدا تماما اذا ما كان معروفا بشكل عام بالنسبة للطلاب في العالم الانجيلي، ان كثيرا من الناس سموا «أبناء الله» في العالم القديم، لم اكن اعرف هذا عندما كنت طالبا في ذاك العالم. اليوم، في مجتمعنا حيث يسيطر العلم العلماني قد يحتاج الامر الى معجزات مزلزلة تجعلنا نعتبر رجلا، او امرأة كائنا الهيا. لكن في العالم القديم، ولغة الألوهية كانت محررة أكثر، اباطرة، فراعنة وفلاسفة عظام، وهيئات دينية كانت تسمى احياناً «ابن الله»، وكانت تعتبر الهية بالمعنى الاجمالي الشامل لمفهوم الألوهية آنذاك، فيما بعد اصبح مصطلح «ابن الله» مألوفاً في الديانة اليهودية، اسرائيل بكاملها كانت تدعى ابن الله (هوشع ١١ - ١)[٧]. الملائكة كانت تدعى بابن الله (أيوب ٣٨ - ٧)[٨]، والملوك كانت تتوج كأبناء الله (سفر الملوك الثاني(٧-١٤)[٩]، و (المزامير ٢ - ١٠) لذا فالمسيح الذي هو الامتداد الملكي لداوود يصبح ايضاً ابن الله. قد يسمى اي يهودي تقي ظاهريا بابن الله، يعني شخصا كان قريبا من الله، خدم الله، عمل بروح الله. وبعباراتنا المعاصرة يسمى ذلك استعارة ومجازاً. لم يعتبر احد ان الملك داوود، الذي قال له الله في تتويجه: «أنت ابني اليوم ولدتك» (المزامير ٢ - ٧) كان حرفيا ابن الله، والا لكان من الطبيعي تماما ان يعتبر يسوع، كونه مبشرا وشافيا وخارقا، ابن الله. على اية حال، كانت هذه الفكرة مجازية لكن اقل وضوحا في العالم المسيحي. وعندما اخذ الرسول بولس الانجيل الى ذلك العالم، هذا المجاز «ابن الله» اخذ يتغير. عندما أُلِّهَ يسوع تدريجيا في اذهان المسيحيين النصارى، اصبح ابن الله النصف مجازي والنصف حرفي، ومن ثم أخيراً بعد عدة قرون، اصبح الابن الحرفي للإله، الشخص الثاني لثالوث مقدس. كل هذا كان عمل الكنيسة حيث مرت بمراحل

جديدة، وخصوصا عندما اصبحت في القرن الرابع الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية.

لذا، أرى ان علم اللاهوت هو صياغة بشرية، لا اصدق ان الله يكشف لنا (تناقضات) افتراضات قضايا سواء بالعبرية، اليونانية، الانكليزية او اية لغة اخرى. اعتقد ان صياغة النظام اللاهوتي هو نشاطات انسانية، دائما، وبالضرورة توظف المفاهيم وتعكس فرضيات، وانحيازات ثقافية للاّهوتيين المعنيين. مثلا، تعاليم التكفير المتعاقبة التي اصبحت بارزة خلال تاريخ المذهب المسيحي، عكست اوضاع المجتمع الذي انتحت خلاله.

تحدي الديانات الأخرى:

بالعودة الى السيرة الذاتية، التي كنت اسردها، هناك على الاقل اختلاف واحد كبير، بين تجربتي الشخصية التي مضى عليها اكثر من نصف قرن، وبين جيل الشباب الحاضر.

كانت مسألة الديانات الاخرى، والتحدي الذي يطرحه وجودها نادرا آنذاك امام المعتقد المسيحي المحافظ، أما اليوم فهذا التحدي اصبح بارزا ومحتوما. في المعهد اللاهوتي تعلمت قليلا من (هـ. هـ فارمر H.H FARMER) لاحظت ان كتابه «الكشف والدين» من اول سطر فيه الى آخره، كان يرى ان النصرانية متممة لما كان متوفرا جزئيا في ديانات العالم الاخرى، وباستثناء اليهودي، لم اكن قد قابلت احداً غير مسيحي، على الاقل اسميا. كنت راضيا بالفرضيات المسيحية العامة آنذاك، والتي تقول انها ارادة الله ان يكون العالم كله مبشرا بالانجيل، وان البشرية تتحول ببطء، ولكن بالتأكيد الى مسيحية. في ذلك الوقت، اذكر انني صدمت عندما اعلن (راينولد نيبور Rheinold Nie-bur) ان تبشير اليهود بالمسيحية كان خطأ.

كيف اذا تبنيت مفهوما للتعددية في العلاقة بين النصرانية، واعتقادات العالم الواسع الأخرى؟ وما هو هذا المفهوم؟ استطيع الاجابة على هذه الأسئلة من خلال اكمال

سرد القصة. بعد التدريس في «كورنيل» ثم في «معهد برينستون اللاهوتي» H.G WOOD CHAIR لجامعة برمنغهام مدينة في «وسط انكلترا» وهي مركز صناعي، كانت خلال الخمسينات والستينات، إحدى المستقبلين الأساسيين للمهاجرين القادمين من الجزر الكاريبية ومن شبه القارة الهندية.

كان هناك بالتالي وجود ضخم للتقاليد غير المسيحية مؤلفة من الجاليات الجديدة الاسلامية والسيخية، والهندوسية. بالاضافة الى جالية يهودية صغيرة، ولكنها قديمة، ومن ثم تواجدت مجموعات بوذية متعددة. كانت الهجرة آنذاك عرضة لنقاشات حادة، وكانت الجبهة القومية، «النازيون الجدد»، فعّالة في المنطقة، فولدت جوا من الضرر، الامر الذي دعم التمييز العنصري ضد الشعب الاسود، والاسمر وضد اليهود.

كان ذلك وقت تحدٍ، وموقعاً لايجاد الذات، خلال سنواتي الخمسة عشر في برمنغهام اصبحت متورطا بعمق في علاقات اجتماعية متعددة. كنت احد المؤسسين لحركة (كل العقائد من اجل عرق واحد «AFFOR») المؤسسة في منطقة (هندورث HAND WORTH) حيث يكثر السود، وكنت رئيسا، ومستشارا «لمركز برمنغهام» لتبادل المعلومات حول الأديان وكنت رئيس المحلفين الديني، والثقافي للجنة علاقات مجتمع برمنغهام المدعومة حكوميا، ورئيس لجنة تنسيق المؤتمر التشريعي المنعقد تحت صك التربية عام ١٩٤٤ لابتكار منهج دراسي متفق عليه للثقافة الدينية في مدارس المدينة. بعد سنتين، تم وضع منهج دراسي متعدد الاديان؛ ليحلّ محلّ السابق المسيحي الحصري. كانت هذه فترة نشيطة ومثيرة احيانا. مدير AFFOR الأول كان قد تعرّض للاعتداء بعنف لمرات عديدة من قبل سفاكي الجبهة القومية، كما طعن الصحافي المحقق اليهودي الذي تعاونت معه في كشف محرر لسجلات قادة الجبهة القومية، الذين كان عدد كبير منهم في السجن، وآخرون منا تلقوا التهديدات. وسط هذا كله، وجدت نفسي برفقة مسلمين، يهود، هندوس، سيخ، ماركسيين، وانسانيين بالاضافة الى زملاء مسيحيين، يجب القول: إن في السبعينات لحسن الحظ كان الوضع مختلفاً عن عصرنا هذا، كانت الكنائس البريطانية بعيدة عن قيادة المعارضة للتمييز

العنصري، فهي كانت غير مهتمة بحل المسألة، وغير مهيأة لمواجهة القضايا، والمسائل الدينية التي أبرزتها حقيقة الاكثرية الدينية.

أثناء هذا العمل، ذهبت كثيرا الى معابد للسيخ، للهندوس، ولليهود، مساجد اسلامية، و بالطبع، كنائس عديدة. في اماكن العبادة هذه، سرعان ما استنتجت شيئا جليا كفاية منذ ملاحظته لأول مرة، لكنه خطير جدا في مضامينه. وهو انه بالرغم من ان اللغة، العبارات، الطقوس الدينية، وروح الجماعة تختلف الواحدة عن الاخرى على نطاق واسع، لكن من وجهة نظر دينية اساسية، ينطبق الامر نفسه على الجميع؛ اي ان الناس يتفقون، ضمن اطار قديم، او متطور جدا، في كشف قلوبهم، وعقولهم لله واذعانهم له، وفي ان له حق الاطلاع المطلق على حياتهم، وانه يطلب منهم بعبارات احد الانبياء اقامة العدل، حب الفضل، المعروف، ومرافقة الرب بتواضع (ميخا ٦ - ٨)[١١].

الرب «GOD» معروف بالمعابد اليهودية بالسيد ADONAI رب اباء ابراهيم، اسحاق، ويعقوب، في المساجد يعرف بالله الرحمن الرحيم، في معابد السيخ بالإله الاب المحب، السيد، المعطي المشار اليه بالغورو WAR GURU، وفي معابد الهندوس فشنو[١٢] وراما[١٣]، وشيفا[١٤] VISHNU, RAMA, SHIVA تجسيد لكريشنا[١٥] بالاضافة الى آلهة كثيرة اناثا وذكورا. وكلهم اعتبروا تجليات حقيقة براهما المطلقة. وفي الكنائس النصرانية الثالوث الالهي، الأب، والابن، وروح القدس ومع ذلك، كل هذه الجماعات توافق على انه لا يمكن ان يوجد سوى اله واحد فقط.

إذا كان هناك بالفعل اله واحد فقط، صانع السماء والارض، هناك احتمالان جليّان، يطرحان نفسيهما. الأول ان الله المعروف ضمن ديانة معينة؛ اي الخاص بها، هو الاله الحقيقي، وان الآخرين غير حقيقيين. والاحتمال الثاني: ان الله المعروف لدى النصارى، اليهود، المسلمين، الهندوسيين، السيخ وغيرهم يمثل تجليات مختلفة بالنسبة للإنسانية، ووجوه مختلفة او أقنعة، او شخص الاله المقبول، او المحبوب، الحقيقة المطلقة.

لكن يوجد ايضا احتمالٌ وسطٌ مُتبنىً اليوم من قبل اغلبية اللاهوتيين المهتمين ان الله كما هو معلوم في اليهودية، الاسلام، الهندوسية المسيحية لمحات جزئية، او محرفة

للإله الحقيقي المعروف تماما في النصرانية. وعلى الأرجح، انه لا يوجد احتمال رابع.

يبدو ان هذه السلسة من الخيارات تغطي الساحة، وتبدو طاغية، فلماذا إذاً اتبنى نظرية التعدّدية التي تقول: إن اشكال الله في الديانات الموحدة هي ادراكات انسانية مختلفة للمطلق، في حين ان النظرية المسيحية التقليدية تقول: إننا وحدنا نملك معرفة حقيقة الرب. ان هذا التبني نابع من دائرة المراقبة، والتجربة الشخصية التي لم تتكون فقط اثناء وجودي في «برمنغهام» التي تتعدد المعتقدات فيها، ولكن ايضا من «سنة» مليئة بالزيارات الى الهندوس، المسلمين، السيخ، البوذيين السيرلانكيين، واصحاب الديانات اليابانية، وايضا من خلال المشاركة في حوارات جرت بين اليهود – المسيحيين، والمسلمين، وحوارات بين البوذيين والمسيحيين. ...

الأخلاق في اغلبية ديانات العالم:

من خلال معرفتي لعائلات عادية بالاضافة الى بعض الأفراد الاستثنائيين الذين تشكلت رؤيتهم من خلفياتهم الدينية، والتقاليد المختلفة التي تحكم حياتهم، والتي مازالت تعيش معهم، لم أجد في ديانات العالم الآخر، بشكل عام مستوى اخلاقي وروحي مختلف عن المسيحيين. لقد بدوا بمستوى عادي لا افضل، ولا اسوأ من المسيحيين. بوضوح أقول: أنا أفترض معيارا عموميا، معنىً عاماً لما نقصد بالصلاح البشري الانساني الذي يعكس علاقة قوية مع الله، هذا المعنى المتعارف عليه عالميا بالخير، يتالف من الاهتمام بالآخرين، اللطف، الحب، الشفقة، الأمانة والصدق. الفكرة الأساسية للمحبة، و الاهتمام بالآخرين، ومعاملتهم كما تحب ان يعاملوك هو في الواقع معلم في كل النواميس الدينية الشهيرة العظيمة، قال يسوع: «كما تحب ان يفعل الناس بك، افعل انت بهم»[١٦].

قال كونفوشيوس[١٧] لا تفعل بالآخر ما لا تحب ان يفعله بك (ANALECTS 7 تقول الطاوية[١٨]، الرجل الفاضل يعتبر مكاسب الغير مكاسبه هو، وخسارتهم خسارته (THAI - SHANG3) تصرح الزرادشتية: ان الطبيعة جيدة وفاضلة فقط عندما لا تفعل لغيرها ما ليس جيدا لنفسها (DAISTAN - I - DINIK 95:5). في الهندوسية تقول

المهابهاراتا (MAHARABHARATA): لا يجب ان يفعل احد لغيره ما يراه مؤذيا لنفسه. هذا، باختصار هو قاعدة الدراما[١٩] DHARMA (amushanaparva, 113:7). تخبرنا الكتب الدينية المقدسة، بأن الواحد عليه السير من خلال: «معاملة كل المخلوقات في العالم كما يرغب نفسه ان يعامل» (katangasutra, bk. i, lat 11:33) أما الكتب البوذية فتحتوي على وصايا بالرأفة، و فضيلة المحبة مثل: «كما تهتم ام لولدها طيلة حياتها، كذلك على المرء ان يكون معانقا لكل المخلوقات» (sutra nipata, 194) التلمود اليهودي يخبرنا ان: «ما هو مكروه لنفسك لا تفعله بزميلك، هذا ما ورد في التوراة» (babylonian talmud, shabbath 31 a) وفي الاسلام، نقرأ كلام النبي محمدP: لا يؤمن احدكم حتى يتمنى لأخيه ما يتمناه لنفسه (سنن ابن ماجة). في كل مرة تمثل هذه الفضائل مُثُلاً عُليا ليس للمسيحيين فحسب، انما لمجمل الديانات الاخرى، والسؤال المهم الذي يمكن ان يثار هو النطاق الذي يمكن ان تطبق عليه هذه المثل العليا؟ الجواب الصادق، ان هذه المثل قد طبقت بشكل مبتور وناقص؛ لأن لكل دين تقليدا خاصاً به. المذنبون والقديسون العظام بالإضافة الى اناس عاديين يعيشون حالة تشوش في الوصول الى المثالية. ولكن بسبب طبيعة السلوك البشري، فالجميع غالبا ما يتعامل بطريقة انانية وحاقدة. ليس بإمكاننا القيام بإحصاء دقيق للتصرفات الفردية لمئات الملايين من الأشخاص ضمن ديانات العالم العظمى على مرّ العصور. من السهل اختيار مظهر من مظاهر الظلم والوحشية في مجتمع غير مسيحي، ومقارنته مع مظهر من مظاهر الصلاح الحقيقي في مجتمع مسيحي. ويمكن أن نفعل العكس بسهولة، وفي كلا الحالتين لن تكون هذه المقارنة عادلة. وأيضاً قد نعتمد على المراقبة الشخصية، وعلى تقارير الآخرين العصرية التاريخية، ومن ثم تشكيل انطباع شامل، هذه الطريقة أيضاً لا يمكن الاعتماد عليها في الحكم. إن انطباعي الشخصي الشامل الذي تشكل من خلال معرفة عدد محدد من العائلات، والأفراد وقراءة مقدار محدد من التاريخ، وكذلك روايات المسافرين، هو أن الفضيلة، والرذيلة منتشرتان بالتساوي بين البشر، بغض النظر عما إذا كانوا مسيحيين، يهود، مسلمين، هندوس أو سيخ.

لكن هذا ما كنا نتوقع، إن كان للمسيحيين وسيلة أكمل، وأصوب من أي دين آخر للوصول وللتقرب من اللّه؛ لأنهم يعتبرون أنفسهم مسكونين بروح القدس. ألا يجب لثمرة الروح، التي هي المحبة، وفقاً للرسول بولس: «أما ثمر الروح فهي المحبة، والفرح، والسلام، والأناة واللطف، والصلاح، والإيمان، والوداعة، والعفاف»[٢٠] (رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية (٥:٢٢-٢٣) أن تكون ظاهرة في حياة المسيحيين أكثر مما هي في حياة غير المسيحيين.

بالطبع، لن يكون من العدل توقع أن يكون مسيحي قد اختير عشوائياً أسمى أخلاقياً من أي شخص غير مسيحي، بل ولا يبدو لي بعد أن المسيحيين أسمى أخلاقياً وبشكل مميز من اليهود، والمسلمين، والهندوس، أو السيخ، أو البوذية. وعوضاً عن اقتراح مقارنة قياسية للنوع؛ وهو أمر غير ممكن، أنا أقترح استنتاجاً أكثر تواضعاً، وتجرّداً، أنه ليس من الممكن تشريع الأعلوية الأخلاقية لأتباع أي من الديانات العظيمة على أخرى.

وعندما ننكب على تعابير التفاسير ذات النطاق الواسع للدين في مجتمعات، وحضارات بشرية على مر العصور، أجد أننا منقادون إلى استنتاج مماثل هو أن الثقافات المسيحية، الإسلامية، الهندية، البوذية الصينية الإفريقية، وحضارات أخرى بدائية هي خليط من الخير والشر.

لكن الخيرات، والشرور تكون غالباً غير متكافئة، كيف يمكن للمرء أن يجعل الشر عند الطائفة الهندوسية في إطار منظومتها المعرفية، والذي يمكن أن نجد مثيلاً له في المجتمعات المسيحية، وفي المجتمعات الهندوسية في الهند على مر العصور اعظم من الشر عند نظام الطبقة الأوروبية عبر العصور ذاتها؟ كيف يمكن للمرء ان يقارن فقر العديد من البلدان الاسلامية، الهندوسية، والبوذية وفي مقابل الاستعمال الجشع للموارد غير الممكن تجديدها والدمار الطائش للبيئة بواسطة الدول المسيحية الغربية؟ كيف يمكن لمرء ان يزن المشاكل الاجتماعية الموجودة في مدننا الداخلية الخاصة، التي تحتوي جرائم القتل اليومية، و العنيفة بالإضافة الى الاستعمال المدمّر للمخدرات؟ أو

كيف يمكن ان نقارن قسوة بعض الأنظمة الغربية، وما يعرف باللاسامية المعادية لليهودية في اوروبا المسيحية التي بلغت ذروتها في محرقة «الهولو كوست» HOLO-CAUST اربعينات القرن الماضي.

بالطبع، من السهل ان نأخذ وجها ظاهريا من حضارتنا، ومقارنته مع وجه شرير لحضارة ثانية. لكن كما سبق، ليست هذه طريقة صائبة للتقدم. من جديد اقترح انه يبدو سهلا الوصول الى استنتاج متواضع، ومتجرّد، وهو ان احدا لا يستطيع تشريع الأعلوية الأخلاقية الفريدة لأي من ديانات العالم العظمى على الأخرى.

البعض سوف يعارض هذا التقييم لسوء الحظ، وأية مناقشة لهذا الموضوع هي على الأرجح غير حاسمة. لكن الأمر يستحق العناء الى حد طرح السؤال على زملائي المؤلفين في هذا المحور اذا كانت نظرتهم، واوضاعهم، ورؤيتهم للدين المسيحي تجعلهم يعتقدون ان الدين المسيحي اسمى اخلاقيا من الديانات الأخرى. وإذا كانت هذه القناعة لديهم، هل هي ادعاء قبلي APRIORI او ادعاء يظنون انهم يستطيعون برهنته؟.

فهل اعطى هذا الانسان طعاما، و شرابا للجائعين؟ هل استقبل الغرباء؟ هل كسَ العريان، وزار المريض، والمسجون؟ (متى ٢٥ :٣١- ٤٦)[٢١]، هذا هو المعيار للدين الحقيقي: «من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنبا، او من العوسج تينا هكذا كل شجرة جيدة تصنع ثمارا جيدة، واما الشجرة الردية فتصنع ثماراً ردية» (٧: ١٦ - ١٧) ولكن يبدو ان ثمار الدين المسيحي ليست افضل، ولا اسوأ من ثمار اليهودية والاسلام، والهندوسية، او البوذية، ألا يدفعنا ذلك للتفكير اكثر في هذه المناهج العظيمة. طريقة التفكير هذه الناتجة عن الاستدلال، والقدر الكافي من المطالعة، تعني لي أن ميدان الخلاص اوسع بكثير من ما هو متعارف في اللاهوت المسيحي.

هذا يقود الى فهم جديد لوظيفة الاديان بما فيها الدين المسيحي، اذا عرفنا الخلاص على انه مغفرة الله وقبوله بأن المسيح مات مصلوباً، فهذا يبطل ان المسيحية وحدها القادرة على منح الخلاص، اما اذا عرفنا الخلاص على انه تغيير فعلي للانسان، والارتقاء التدريجي من الأنا، ومحورها الذات (بكل ما ينتج عنها من شرور)

إلى توجه جوهري جديد يكون اللّه محوره، ويكشف عن ثمار الروح، عندها يبدو جليا ان فكرة الخلاص اصبحت مشتركة بين جميع الأديان، وفي نفس المكانة. بناء على هذه النظرية التي لم تبن على اساس لاهوتي، لكنها نتجت من خلال معاينة الحقائق الملموسة للحياة الانسانية، فان الخلاص ليس معاملة قضائية مدونة في السماء، ولا رجاء معقودا ينال بعد هذه الحياة (علما انه كذلك).

ولكنه حركة تغيير روحية اخلاقية، وسياسية قادرة على ان تحدث الآن وفي اصل بناء مفهوم الحقيقة. وقد اعطي هذا المصطلح (الخلاص) تفسيرات مختلفة بحسب اختلاف الديانات، مع ان مصطلح الخلاص بالأصل مصطلحٌ مسيحيٌ.

والفداء مصطلح مشترك بين المسيحية واليهودية. المسلمون يستعملون مصطلحا مختلفا ينبثق من التسليم المطلق لله، واهب الحياة، الرحمن الرحيم بالعباد. الاديان الشرقية (في الهند والصين) لا تلحظ دائما الحق المطلق الذي نسميه الله على انه ذات مستقلة، ولا يوجد عندها مصطلح الذنب، او الغفران، مفهوم الخلاص عندهم نوعا ما، يعني التحرر والاستنارة، يعني ازالة الحجب عن الكمه[٢٢] الروحي الذي يسمى عندهم (أفيديا AVIDYA)، و اكتشاف الاتحاد المطلق مع «البراهمن» BRAHMAN الحق الأبدي.

اليقظة والانتباه مصطلح شرقي آخر؛ يعني الانتباه لأصل طبيعة الحقيقة عندما تلاحظ من وجهة نظر الكون. هذا الانتباه التحولي عبارة عن تحسس كلي للحياة يسمى «نيرفانا» NIRVANA [٢٣]، هذه تجارب مختلفة من خلال تصورات متكاملة، مختلفة لكليات دينية مختلفة.

لكن كل هذا اشكال مختلفة، ومتعددة، لانتقال الانسان من دائرة الذات الى دائرة الحق المطلق كما فهمه، وفسّره كل على حسب طريقته؛ مما ادى الى تأسيس الثقافات الدينية العظيمة على الأرض. وبالنسبة لي، اجدني معتادا على استعمال المصطلح المهجن «الخلاص»؛ لأنه مصطلح مشترك بالاجمال.

ان عمليات الاستنتاج هذه، والتي اعتمدتها ايضا تكون استقرائية؛ لأنها حصلت

اعتمادا على معلومات تم ملاحظتها، ومعاينتها وهي ليست استدلالية؛ بمعنى الاعتماد على مقدمات منطقية سابقة، او استخلاص النتائج منها، منطلقا من خلال المعتقدات المسيحية، ملتزما بمبادىء العقيدة التي تفيد ان تجارب، وممارسات الدين المسيحي ليست كالايمان الشكي، مجرّد بروز ابداعي فقط، ولكنه استنتاجاتنا للحق المطلق العلي، هذا الحق الذي نسميه الله. ان تجربتي الدينية تشكلت كليا من الديانة من سيئات، وحسنات، وقد شكل هذا التراث بكل اجزائه عالمي الروحي. ألاحظ انه يوجد في هذا العالم تيارات قديمة منتشرة، ومعقدة ايضا من الاديان، والمعتقدات، وكل من هذه التيارات لها حسناتها، وسيئاتها، وبعد التدقيق في هذه الأديان ومن ضمنها المسيحية أجد مفهوم الخلاص والتحرر مفهوما ناقصا.

هذه المفاهيم تشكلت عندما توجه الانسان بنسب متفاوتة بشكل عام من الذات الانسانية الى الحق المطلق. ان قدرة اللاهوت الخلاصي عندهم تمّ تقييمها على المستوى البشري الانساني من خلال نتائجهم الانسانية، وهذا النتاج برأيي كان متساويا بين كل الثقافات العظيمة.

من هنا، يبدو لي منطقيا ان استنتج ان المسيحية، ومعها كل المعتقدات الأخرى هي ادراكات انسانية للمطلق، فهي رأت الألوهية المقدسة، والمطلقة من خلال المنظار التصوري الانساني، واكتشاف الالوهية من خلال اشكال مختلفة من الرياضة الروحية التوافقية للتجارب الدينية.

فيبدو انه تمّ تأسيس صحوات انسانية اصيلة، وادراك المطلق، والحق ومنشأ كل شيء ومنتهاه. لنر الآن ما علاقة كل هذه بالفكرة الأساسية لهذا الكتاب؟ وهي قدر غير المسيحيين بالنسبة للدين الارثوذكسي التقليدي، فهذه مشكلة دقيقة لأنها تعتبر ان القدر الأبدي للغالبية العظمى من الجنس البشري في خطر. الناحية المرفوضة من نظرية الاستئثار القديمة التي تقول ان من لا يؤمن بالمسيحية فهو ضائع، أو مخلد في النار الى الابد. وهذه الفكرة تم نسبتها الى الله، وطبيعته بشكل سيء.

هل يمكن لله الذي لا حدود لحبه الالهي، ان يكون قد اقر اقلية من الناس الذين

صادف ان ولدوا في الجزء المسيحي من العالم، كي ينالوا الحياة الابدية؟ عندما قمت بالدعوة لمعتقد خلاص كوني، وانطلاقا من تعاليم الدين المسيحي اخذ هذا الموضوع شكلا مختلفا من وجهة نظر التعدّدية الدينية. لم يعد السؤال محصورا بقدر غير المسيحيين؟، بل بقدر المسيحيين، وكل من سواهم، هل يمكن لكل أو بعض، أو حتى لأحد من الجنس البشري، مسيحيا كان او بوذيا، او مسلما، او من اصحاب الفلسفة الانسانية، ان ينال وفاءه الاخير مع الحق الالهي؟ بنظري، التفاؤل الكوني للثقافات العظيمة، واعلانه عن وجود ابدي افضل للجميع، انطلاقا من الكيان المطلق للحق، يؤكد ان جميع الخلق في النهاية سوف ينالون هذا الوفاء، ربما بعد ان يحيوا عدة مرات في عوالم مختلفة.

لكن النقطة هنا ان مفهوم الخلاص، والتحرر الكوني، او المحدود عند الاديان المتعددة ينطبق بالتساوي على الناس من مختلف دياناتهم حتى عند الاشخاص الذين لا يملكون دينا لا فرق بين المسيحيين، او غيرهم كما في المعتقدات الارثوذكسية التقليدية.

التعدّدية كتفسير فلسفي للظواهر الدينية:

هذه التعدّدية ستطرح سؤالاً كبيراً، كيف نفهم موقف التعدّدية من تراث الاديان العظيمة التي تدرك وتتوصل الى المطلق، والحق بطرق متعددة من خلال مناهج، وعقائد ايمانية متناقضة؟ ولكن ومع ذلك، تشترك من قريب او بعيد بالدعوة الى خلاص، وتحرر الانسانية، والبعض يكون مقتنعا فقط ليثبت ان هذه الامور من المسلّمات من دون ان يقدم اي برهان عقلي. ولكن اصحاب الفكر الفلسفي يريدون ان يفهموا هذا الامر. وأقترح فلسفياً أن الجواب يكمن في مبدأ نظرية المعرفة التي طرحها توما الأكويني[٢٤] منذ زمن بعيد عندما كتب: «الامور المعروفة عند العارف بحسب نمطه وشاكلته»؛ يعني ان عقل الانسان ليس عبارة عن صفحة بيضاء يطبع العالم عليها نفسه. على العكس من ذلك فالعقل البشري، وبحالة مستمرة يقوم بتحليل، وتغيير المعلومات المدركة طبقا لحدود الأنظمة التصورية التي نعيش فيها. بكلمات اخرى، العالم الملحوظ جزئيا فقط جزئيا،

يتم بناؤه وفهمه من خلال النشاط الفكري الادراكي. ويوحّد الواقع في ذلك؛ وهو ان الشكل الذي ندرك من خلاله نابع من انفسنا، هذا هو النقد الواقعي لنظرية المعرفة.

لذلك؛ يجب ان نميّز بين العالم بذاته، العالم المحجوب، ونفس هذا العالم، ولكن من خلال الادراك الانساني لها، مثلا ان مكتبي المؤلف من مساحات قاسية اذا نقرت عليها تصدر صوتا، من وجهة نظر الفزيائيين، هي رزم متناهية الصغر تتحرك بسرعة هائلة يدعونها ذرات لا لون، ولا صوت، ولا وزن لها، وهي دائمة التحرك. ولكن بالنسبة للانسان الذي يملك هذه الحواس الدقيقة للإدراك لا يمكن أن يدرك هذا العالم إلا كما هو، وليس كما يراه الفيزيائيون. ولا بد أن نفس هذا العالم هو شيء مختلف بالنسبة للسمكة، او العصفور، او الحصان.

بناء عليه، وكما مثّل ايمانويل كانط[٢٥]: يجب ان نميز بين الشيء بذاته، وبين الادراك البشري لهذا الشيء الذي يدرك على انها ظاهرة وحدث، هذا الاسلوب اصبح لا يدخل فقط اعتبارات نظرية المعرفة، ولكن ايضا دراسات علم النفس، وعلم الاجتماع.

اذا اعتبرت هذه حقيقة عامة حول العقل الانساني؛ اي ان تصرفاتنا، وردات فعلنا، وادراكنا لمحيطنا يتكوّن من خلال نشاط تحليلي دائم ومستمر، فان هذه الحقيقة تكون صادقة ايضا بالنسبة لوعينا وادراكنا الديني، فيجب عندها ان نتوقع مشاركة انسانية في صنع مفهوم ادراكنا للعالم المطلق، الوجود الكوني للألوهية.

لذا فان كل ثقافة دينية تفهم الحقيقة المطلقة بشكل مغاير؛ لأن كل دين يعرفها من خلال نمط، او طبيعة، وولاية ادراكية خاصة به. اذا اردنا عند ذلك أن نميز بين الحق المطلق، الألوهية بذاتها، وبين الحقيقة في المفهوم الانساني نستطيع حالا ان نجد تعدّداً للأديان المختلفة التي تشارك في ادراكها الانساني للمفهوم المطلق. هذه هي اديان العالم العظيمة.

الحق والمفهوم الإنساني له:

استعملت مصطلحات متعددة كالمطلق، والحق المطلق لما يسمى الاله عادة اثناء

التخاطب الديني المسيحي. ابتداء من الآن سوف استعمل مصطلح «الحق» مبدئيا؛ لأنه ينطبق مع طريقة تفكيرنا المسيحية في الاله، حيث إنه وحده الحق الكامل والمطلق ايضا. الحق يعني تماما «سات» «في السنسكريتية»[٢٦] والحق في العربية. عندما نعتبر اديان العالم العظيمة مختلفة في دعواتها الفعّالة للخلاص والتحرر، يجب ان نفكر بالعبادة التوحيدية لها، بعيدا عن تجسيمهم وتشبيههم بصورة الله. يجب ان ندرك ان الحقيقة التي نسميها الله تتجاوز مستوى الفكر البشري. لذا، فإن أحد أباء الكنيسة غريغوريوس النيصي[٢٧] اكد انه لا يمكن بكلمات، او أفكار البشر ان تحيط بذات اللّه وكتب قائلاً: «إن الإيمان الحقيقي بكل بساطة يفترض اللّه كما هو لا تحيط به الصفات ولا الافكار، او اي من ادوات الفهم، يبقى ابعد من ان يناله ليس فقط الانسان، ولا الملائكة، ولا حتى الذكاء الخارق، لا يحويه فكر ولا وصف، فهو فوق كل تعابير الكلمات، ليس له الا اسم واحد، يمثل طبيعته الحقيقية، اسم وحيد هو فوق كل الاسماء[٢٨] «أوغسطينوس»[٢٩] صرّح «بأنّ الله يتجاوز العقل»[٣٠]. أنسلم[٣١] anselm عرف الله على انه اعظم من ان يصل اليه الفكر، مضيفا ان الله هو: «الاعظم من ان يناله فكر»[٣١]. اذا ظننا أننا نعرف من هو الله، فحتما إن ما نعرفه هو ليس الله(٣٢). قد عكس توما الاكويني هذا الرأي، عندما كتب: "هل نعرف الله حقا عندما نؤمن به على انه فوق كل شيء، وانه من المستحيل ان نفكر بذاته و... وبعظمته وجلاله ان مادة المضمون الالهي تتجاوز كل الاشكال التي يمكن ان يصل اليه فكرنا"[٣٣].

وقد قال بهذا الامر بعض المفكرين المسيحيين التقليديين من حيث المبدأ، ومن ضمن هؤلاء لقطن طيوس Lactan thus[٣٤]، ديونيسوس الاربوباجي Dionyshus The areo Pag-ite[٣٥]، جون سكوت اريجانا John scotus Erigena[٣٦]، القديس جون الصليبي St John the cross[٣٧]، وكاتب ثيولوجيا حرمانيكا Theologia germanica، مارتن لوثر كينغ[٣٨] قال ذات مرة: إنه يدين لكتاب: "Theologia germanica" اكثر من اي كتاب آخر غير الإنجيل وأعمال اوغسطين، فرفض معرفة الله بمعزل عن غايات الله ومقاصده؛ لأنها تمثل علاقته بنا (الانسان). الله هوAbsconditus Duos[٣٩] الاله المحتجب في طبيعته الالهية

الابدية. كارل بارث Carl barth، في القرن العشرين، ايضا نحا باتجاه الحديث عن كمال واعجاز الله عندما تحدث على انه الآخر المقدس Wolly other. كما ان بول تيللش Paul tillich، تحدث عن: "الاله الذي هو فوق التوحيد"، مرّدداً ما كان قد اقامه مايستر ايكهارت بين اللّه (deitas) godhead والله بالذات Dues.

هذا ما جرى في الديانة المسيحية منذ البداية، والذي يعتبر المركز الذي تعتمده تعاليمنا في مسألة التمييز هذا الذي سبق ان تكلمنا عنه. ويظهر هذا الاساس في كل تعاليم الاديان العظيمة الاخرى في العالم، في الشكل المسيحي ان التمييز يدور بين مفهوم الله الذات في حقيقة وجوده الذاتي الخالد، مستقلا عن الخلق، وبين الله الموجود في علاقاته مع الجنس البشري، كما نعرفه الخالق، الفادي والملهم. ان تعاليمنا الدينية المسيحية، وبحكم الظروف تتعامل مع مفهوم الاله كما هو معروف لنا، مسلّمة ان الله في وجوده الالهي مطلق، هو فوق ما يتصوره فكرنا المحدود. المفكر الكاثوليكي نيكولاس دا كوسا Nicolas of cosa في القرن الخامس عشر طورّ بعض مضامين هذه الفكرة عندما كتب: كخالق، الاله هو ثلاثة في واحد، اما كمطلق فليس بثلاثة، ولا هو واحد من الاشياء التي نستطيع ان نقولها، اما الاسماء، او الصفات التي نسبت للاله فهي من مصدر بشري؛ لان الاله نفسه هو فوق ان يوصف، واسمى من ان يسمى او ينعت[٤٠] لقد اشرت ان هذا التمييز من جهة بين الحق ذاتا، - وكما اشير اليه بالفرنسية a se - وفي الالمانية الكانطية an sich، وفي الانكليزية In Itself (التي تميل ان تكون محايدة؛ لأنها لا تستعمل للتذكير او للتانيث) - من جهة اخرى، الحق كما هو معروف انسانيا، هذا التمييز يظهر في جميع التعاليم الاساسية. المفكر اليهودي العظيم إبن ميمون[٤١] MAIMONIDES ميّز بين الجوهر، والتجليات الإلهية، كما أن المتصوفين اليهود، والمسلمين ميّزوا بين مفهومي الجوهر والعرض، ميزوا بين مفهوم الحق (EINSOF) في القابالة اليهودية، والحق عند الصوفية الإسلامية)، وبين الاله المعرف بذاته في الانجيل العبري والقرآن. مخطوطات الطاوية تبدأ باعلان ان الطاو الذي يعبر عنه هو غير الطاو الابدي. في الفكر الهندوسي التمييز يكون بين نيرفانا البراهمن

(مثلا براهما غير الموصوف فوق تصورات الانسان)، و بين ساغونا (SAGUNA) البراهمي (مثلا براهمي كما اختبر انسانيا على انه اله الشخص) في تعاليم بوذية المهايانا[٤٢] هناك تمييز في تعليم التريكايا (TRIKAYA) بين دارماكايا (DHARMAKAYA) المطلق، والحق الذي لا يوصف، والذي لا يمكن التعبير عنه بأي شكل من اشكال الفكر البشري)، وبين سامبوغاكايا (SAMBHOGAKAYA) (المؤلف من صور وأشكال بوذا السماوية الذي تجسد في التاريخ الانساني على شكل نيراماراكايا (NIRMANAKAYA). بشكل عام، فان التمييز واقع بين الحق كما هو بذاته، والحق المتصور انساني وباشكال مختلفة، وبين الصور الالهية الشخصية، والمختبرة والكليات الشخصية في ديانات العالم. فرضية التعدّدية، والتي اعتبرت على مرّ القرون تفسيرات دينية للدين في العالم، كانت نتيجة لهذا التمييز بالاضافة الى مبدأ نظرية المعرفة، والذي يقول بوجود اشتراك تأويلي للمعرفة البشرية كافة. الفرضية هي لديانات مختلفة نسميها الهندوسية، اليهودية، البوذية، الطاوية، الكونفوتشيوسية، الديانات الافريقية الاساسية، المسيحية، الاسلام والسيخية. يجب علينا ان نسلم جدلا بالحق المتعالي المطلق مبدأ وأصل كل شيء، والذي هو بذاته فوق منظار التصورات البشرية، ولكن تم تمثّله بسبل مختلفة؛ وبالتالي اختياره، والاستجابة له في الحياة، من هنا كل الديانات مختلفة.

يجب ان يطرأ تغيير على مبدأ الذات الذي هو الحق المطلق الذي لا يوصف، حيث يتنزه عن اشكال فكرنا البشري. هذا يعني انه يمكن ان نضع تعابير اصطلاحية بحتة حتى «الذي لا يوصف» منزه عن الصفات، لكن هذه تفاهة منطقية. لا يمكن ان ننسب الى الجوهر اي صفات جوهرية، مثل: كونه شخصياً او غير شخصي، خيراً او شراً، هدفاً او غير هدف، مادياً او عملياً، حتى واحداً او اكثر، تابعا لحدود اللغة التي ترغمنا على التحدث عنه بصيغة المفرد بدلا من الجمع. مثلا لا يمكن ان نثبت ان الحق هو لا شخصي (او لا موضوعي) بانكارنا انه شخصي بذاته. هذه القطبية في المعاني ببساطة لا تنطبق عليه.

وسائل تعابيرنا البشرية لا تستطيع ان تحيط بالحق المطلق. ان مفهوم الحق يدخل في تصنيفنا البشري من خلال الفهم، والاختيار الانساني فقط.

كيف يمكننا اذاً ان نعبد الحق اذا كان متعالياً عن كل الخصائص، والمدركات البشرية؟ الجواب، هو اننا لا نعبد الحق بذاته، ولكن دائما من خلال تجلياته البشرية، مثل: تعاليم الأب السماوي للمسيح، الله بحسب مفهوم القرآن، او مثل السيد «ADONIA» كما في التلمود اليهودي، أو مثل فشنو، أو مثل شيفا، أو مثل PRATITIA SAMATHPADA (الشخص الذي يواجه نفسه من خلال التامل باتجاه النيرفانا عند البوذيين غير الموحدين)، او مثل طبيعة بوذا الكونية SUNYATA، او كما عند الهندوس غير الموحدين. كل من يواجه نفسه من خلال التأمل الى طبيعة براهما الكونية، مثلما نفعل جميعا في اعماقنا، كل هذه الطرق مختلفة للرجوع إلى الحقيقة المطلقة، وللتنبيه لما هو السلام، والسعادة، واللطف، والرحيم المناسب للحياة. وبعبارات أخرى، فرضية التعدّدية ليست ديناً جديداً، يسعى من أجل تجاهل، أو نسخ الأديان الموجودة. إنه تأويل فلسفي لحالة الدين بشكل عام، في حين انها لا تتدخل بأية تعاليم تنفتح حواراً مع التعاليم الأخرى، ومن خلال نقد وآراء متبادلين، ان قبول أي شكل من أشكال التعدّدية، يحدث في بعض الأحيان تغييراً مهماً لبعض التعاليم أكثر من تعاليم أخرى؛ لأنه يحثّ على غربلة، وصياغة هيئة فهمها الذاتي، الذي يستلزم دعوة لاستعلاء فريد على أديان العالم الأخرى.

تأثيرات التعدّدية على المسيحية:

ما هو تأثير فرضية التعدّدية هذه على المذاهب المسيحية؟ في المسيحية، وكما الإسلام، فإن إدعاء الأفضلية متجذرة في عمق النظام الاعتقادي. من هنا، تصبح التعدّدية مصدراً للتعارض، والانزعاج الشديد؛ ولهذا السبب فإنه من الصعب ان لم يكن من المستحيل أن لا تعتبر التعدّدية معصية بنظر المؤمنين المتشدّدين، ولعل الأكثر تشدّداً يعتبرها عمل من صنع الشيطان، لا يسعني القول: سوى أنني لو وضعت نفسي مكانهم

لتفهمت خوفهم، على كل حال، فقد اكتشفت أنه لا يوجد أي مبرر للخوف من الانفتاح بشكل أعظم على الحضور الإلهي من خلال الحياة الدينية لكل أنواع البشر، بل على العكس هناك تحرر، وانفلات من رأي منحصر نسبياً إلى ما هو اعتقاد مسيحي ناضج، وأكثر واقعية وصدق عقلي.

كما كنت أقترح ان ادعاءات المتشدّدين بخصوص استعلاء فريد للديانة المسيحية، تكون من خلال وقائع ملحوظة. ولكن كيف يستلزم اللاهوتيون المتشدّدون استعلاءً فريداً للديانة المسيحية؟ الارثوذكسي التقليدي يقول: يسوع الناصري هو تجسد للإله؛ أي أنه ابن الإله، الشخص الثاني للثالوث الأقدس، والذي أصبح رجلاً ليموت من أجل خطايا العالم، ومن أجل من أوجد الكنيسة حتى انتشر ذلك في أطراف أخرى للأرض، وبذلك فان كل من تقبّل المسيح باخلاص على أنه الرب، والمنقذ فانه سيشمله الموت التكفيري، ويرث الحياة الأبدية.

وهذا يعني ان الديانة المسيحية وحدها من بين الديانات الأخرى في العالم، هي الديانة المرسلة من الله شخصيا؛ فالرب تنزل من السماء الى الارض، وبشر بالحركة الخلاصية التي عرفت بعد ذلك بالديانة المسيحية. من هذه المقدمة يبدو جليا ان الله اراد من جميع الكائنات البشرية ان تدخل هذا التيار الجديد الى الحياة المنقذة؛ بحيث تبطل الديانات المسيحية كل الديانات الاخرى. قد تحمل هذه الديانات الاخرى بعض الخير، وقد تصلح ان تكون الى حد ما عملا تحضيريا للإنجيل، لكن دون شك الديانة المسيحية وحدها هي دين الرّب، والذي يقدم حياة متكاملة لايمكن لأي تعاليم ان تقدمها، وهذا مُصَمَّمٌ إلهياً لكلّ رجل وامرأة من دون استثناء.

كل هذا ينبع منطقيا من صميم عقيدة ألوهية المسيح، وكل التعاليم الاخرى، لمعتقد الثالوث المقدّس، ومعتقد التكفير بدوره ينبع منطقيا من هذا. بينما كان الرب على الارض بشكل المسيح، كان وفي نفس الوقت الرب في السماء، وعندما تضيف الروح القدس ـ (الذي لم يكن بأي حال منفصلا في الطبقات الاولى في العهد الجديد عن روح المسيح، والذي لم يكن اساسا مشارا اليه على انه موجود ثالث) نحصل عندها على

ثالوث. ان مبدأ التكفير الإلهي التقليدي، يشكل النظرية الأولى للفداء، أو نظرية الرضا الكاثوليكية، او نظرية النيابة الجزائية المعدّلة تفترض فكرة الوهية المسيح؛ لذا فان الاعمدة الثلاثة للتقاليد الارثوذكسية، تصبح وبشكل اساسي عرضة للانتقاد عند اي محاولة لاثبات عالمنا اللاهوتي في ضوء الادراك، علما ان المسيحية ليست الممر الوحيد للخلاص، ولكن واحد من كثير.

ان اعادة النظر في التعاليم التقليدية للتجسّد، يعني ضمنا، اعادة النظر في نظرية التثليث، والتكفير. اعادة النظر هذه، قد بدأت عند بعض المسيحيين بشكل مستقل بعيدا عن ضغوطات التعدّدية الدينية. الكثير منهم وجدوا أنهم يستطيعون ان يحبّوا، يوقروا، ويتبعوا يسوع الناصري كما هو معروف في وثائق العهد الجديد، دون الحاجة لأن يؤمنوا بأن المسيح هو تجسيد الهي للرب. هذا يضع العقيدة التقليدية امام مشكلتين.

المشكلة الاولى: ان المسيح المعروف تقليديا وتاريخيا، لم يعلم هذه التعاليم. فهي صنيعة الكنيسة التي كان المسيح نفسه اعتبرها كافرة. نحن هنا على حافة البؤرة التي لا نهاية لها للتأويل الانجيلي، حيث وفي هذا المجال لم يقل اي باحث به الا ونفاه باحث آخر. لذا علينا وفي كل حال ان نفصل بين المتعصبين للانجيل الذين يقولون بعصمة الانجيل حرفيا، وبين السواد الاعظم للباحثين في الانجيل، مثل الذين يدرسون في الجامعات، والكليات المعتمدة اكاديميا. بالنسبة للأوائل فان فكرة التجسّد يمكن الاشارة اليها من خلال النص التالي: «يوحنا ١٣:١٠»[٤٣]، و"كل من رآني فقد رأى الاب" (يوحنا ١٤:٩)[٤٤]. اما بالنسبة للآخرين، وهم التعدديون يمكن ان يشيروا الى مفهومهم من خلال النص التالي: "انا الطريق، وانا الحقيقة، والحياة ولا يمكن لأحد ان يأتي الى الأب الا من خلالي" (يوحنا ١٤:٦).

ولكن من ضمن الباحثين الاساسيين للعهد الجديد، في كل من المشددين والمتحررين، الكاثوليك والبروتستانت، هناك اجماع اليوم على ان هذه ليست اقوالا للمسيح، ولكنها كلمات نسبت اليه من بعد خمسين، او سبعين سنة من قبل احد الكتاب المسيحيين، الذي قام بصياغة هذه التعاليم الدينية، التي ازدهرت فيما بعد اثناء نمو الكنيسة.

ان اختلاف الخطابات بهذه الطريقة من اجل الشهرة، وتضخيم صور الماضي، مشتمل على رأي الكاتب في الدلالة الحقيقية لتلك الصورة الماضية، كان عادة طبيعية في العالم القديم، والاحاديث المنسوبة الى المسيح في الانجيل الرابع تعتبر اليوم عند معظم الباحثين المعاصرين اكبر مثال على ذلك، على كل حال، ليس كل منتمٍ الى الجناح الانجيلي في الديانة المسيحية مدركا لذلك. لذا علي ان اروي مقاطع لباحث، او اثنين من الدارسين المتشدّدين للعهد الجديد، والذين يؤمنون من صميم قلبهم بالتجسّد، ولكنهم في الوقت نفسه يدركون عدم اعلان هذا الامر من قبل المسيح شخصيا.

فها هو (س. ف. د. مول C.F. D moul) الذي يعتبر من ركائز علماء الدين الارثوذكس يقول: "ان اية قضية اساسية في علم الدين المسيحي اعتمدت على القضايا المنسوبة الى المسيح حول شخصه، وخاصة في الانجيل الرابع هي بالتأكيد مشكوك فيها"[٤٥] كما ان رئيس اساقفة كونتربري ميخائيل رمساي Micheal Ramsay (وهو ركيزة من ركائز الارثوذكسية الدينية على غرار مول) كتب يقول: «ان المسيح لم يدَّعِ الالوهية لنفسه». و«إن عنوان ابن الله ليس دلالة قوية بحد ذاته، حيث إنه في الدوائر اليهودية قد لايعني اكثر من المسيح (messiah) المبشّر، وبالتاكيد فهو يدل على كامل الامة الاسرائيلية، وفي الهليّنية كان هناك العديد من ابناء الله؛ اي رجال قديسون ملهمون)[٤٦]». البروفيسورجايمس دين JAMES DUNN، وهو باحث مميّز ومتشدّد في العهد الجديد، كما انه مدافع عنيد عن علم الدين الارثوذكسي، يستنتج في كتاب واسع الانتشار عن الاصول المسيحية انه: "لا يوجد اي دليل حقيقي في تعاليم المسيح الاول ما يمكن بالحقيقة ان يسمى باستشعار الالوهية[٤٧]" هذا المفهوم مقبول بشكل عام حتى بالنسبة للاهوتيين المتشدّدين، الذين يدافعون عن مذهب التجسّد التقليدي، فهم يسلمون به ضمنا في اطار المعلومات الاساسية التي يأخذونها بالحسبان، من هنا فإن «كانون برين هبلشويت» Canon Brian Hebblethwaite وفي معرض دفاعه الاساسي عن مذهب التجسّد التقليدي وصل الى نتيجة: «ليس من الممكن بعد الآن الدفاع عن الوهية المسيح من خلال ما بيّنه المسيح[٤٨]».

والبروفسور دافيد براون David Brown، وهو عالم آخر متشدّد كتب يقول: «يوجد دليل جيد ان المسيح نفسه، لم يَرَ ذاته لائقا بالعبادة»[٤٩]. هذا يعني: «انه من المستحيل أن نبني أي اعلان لألوهية المسيح على أساس استشعاره عندما نرفض الاطار التقليدي كما عكس في الفهم الحرفي لانجيل يوحنا[٥٠]»، «ان عدم اعلان المسيح عن نفسه بأنه الرب يقطع الطريق أمام المدافعين عن العقيدة المسيحية القديمة ـ والتي استعملتها مرات عدة عندما كنت طالبا انجيليا في ادنبورغ ـ والتي تقول: ان من يدعي الالوهية يجب ان يكون اما مجنونا، او شريرا، او الهاً، ولأن المسيح لم يكن شريراً، أو مجنونا فهو اله. فمن الواضح الآن ان المسيح لم يدَّعِ الالوهية، يجب على المؤيدين لمذهب التجسّد الحرفي ان يتراجعوا من خلال السلطة الربانية عما يعتقدونه حجّة جدلية تقول ان كلمات، وافعال المسيح تدَّعي ضمنيا الالوهية. لاشك ان المسيح اعلن غفران الله للأفراد كما يفعل بالتأكيد الكهنة، والأسافقة. كما ورد في انجيل مرقس: (لابن الإنسان سلطانٌ على الأرض أن يغفر الخطايا) (مرقص ٢:١٠)[٥١]. ولكن حيث إنه يوجد نظريات مختلفة حول معنى ابن الانسان، لم تقترح اي من هذه النظريات انه اما ان يكون كائنا وسيطا، او يكون بساطة ابن الانسان اي انه انسان.

المشكلة الاولى التي تعترض مبدأ التجسّد التقليدي اذاً هي ان المسيح لم يُعلمّها، والاعتقاد السائد انه دعا اليها ادعاء مشكوكٌ به بشدة. انه من الصعب والوهن ان يبني احدهم معتقده على تأويل من نصوص قديمة مشكوك فيها. السؤال الذي يجب مواجهته هنا على اي اساس نستطيع ان ندعي اننا نعرف من هو المسيح بطريقة افضل مما عرّف بها نفسه.

المشكلة الثانية: هي انه بعد حوالي خمسة عشر قرنا، لايمكن اثبات امكانية اعطاء اي معنى صريح لفكرة أن المسيح له طبيعتان كاملتان، احداهما انسانية، والأخرى إلهية. ان عنصر المفارقة للفكرة واضح. فمن أجل ان يكون المسيح بشرا كاملا وبشكل صادق، يجب ان يكون قد حصل على كل العناصر البشرية، وحتى يكون المسيح الها كاملا، وبشكل صادق، يجب ان يكون قد حصل ايضا على كل العناصر الإلهية. وهذا يتضمن

كونه خالدا، غير مخلوق، موجدا لنفسه، خالق كل شيء سوى الاله، أحادي القطب، كلي الأبداع، كلي الظهور، روحا دون جسد ويكون كاملا فيه كل فضيلة مثل الاحسان، الحب، العدالة، الرحمة، المجد. ان اي شخص يفتقد أياً من هذه الخصائص ليس الهاً كاملاً.

ان جوهرالخصائص الانسانية لا يسهل احصاؤها؛ لأننا لا نملك علم الانسان الارثوذكسي الذي يتماشى مع علم اللاهوت الارثوذكسي. ولكن هذه الخصائص حتما تحتوي على وجود جسد بشري مع حجم محدد؛ اي ليس كلي الحضور؛ وهو مخلوق يعني ليس خالقا لكل شيء، غير الاله، يملك طاقة محدودة، فهو ليس كلي الاقطاب، كونه يملك حدودا للفضائل المتنوعة وليس المرتبة اللامتناهية.

اذاً السؤال الذي اغضب علم اللاهوت، والذي لم يجد جوابا مقنعا، هو انه كيف يمكن لشخص اسطوري (تاريخي) الذي هو يسوع الناصري ان يحتوي على كل الخصائص في آن واحد؟ هذا اذا كنا مقتنعين بالأمر بالتأكيد. هل حقا نريد القول: ان المسيح كان لديه المعرفة المطلقة التي يملكها الاله، ولكن فقط تظاهر بالجهل كما ورد في متى ٢٤ :٣٦[٥٢]. وهل نريد القول: إنه من الممكن حقا للمعرفة المطلقة ان يحتويها عقل الانسان المحدود. ان عدد خلايا الدماغ عند الانسان، مع انها كثيرة، ولكن تبقى قدراتها محدودة؛ ولذا لا يستطيع ان يحوي الا كمية ضئيلة من المعلومات. اذاً كيف يمكن للمسيح ان يملك العلم المطلق؟!.

ايضا، وباعتبار الوجود المطلق. هل نريد حقا القول: إن المسيح صاحب الحضور المطلق تظاهر انه ليس كذلك كما ورد في مرقس؟ ٦ :٥ [٥٣]. اكثر من ذلك، فان المسيح ومن خلال الاناجيل، وبشكل اجمالي يظهر على انه مخلوق، وليس خالق الكون، وانه ظهر الى العالم في وقت محدّد، فهو ليس الكيان الابدي الموحد لنفسه، وانه كان موجودا في مكان محدد اذاً فهو ليس الكيان الابدي الواحد لنفسه، وانه كان موجودا في زمن محدد اذاً فهو ليس حضورا مطلقاً. وفي الوقت الذي كان فيه محباً، خيّراً، حكيما عادلا، ورحيما، فان هناك مشكلة بدون شك هي انه كيف للكيان الانساني المحدود ان يحمل في ضمنه هذه الفضائل بشكلها الكامل اللامتناهي؟!.

ان المجمع الخلقدوني، الذي اقرّ لأول مرة التعاليم الارثوذكسية، اكد بكل بساطة: "ان المسيح كان في ذات الوقت الها كاملا، وبشراً وهذا فهو له طبيعتان، الهية وبشرية موحدتان دون أي تعارض، اي تغيير، اي انقسام، بدون اي انفصال، وان التمايز بين الطبيعتين لا يمكن بأي شكل ان يتعارض مع الاتحاد، ولكن على العكس؛ فان خصائص كل طبيعة تتكامل، وتتشارك لتشكل شخصا واحدا.» هكذا فان المسيح يمتلك كلاً من الخصائص الالهية، والبشرية، وهذه الخصائص محفوظة ومصانة. لكن الحاكمية لم تبين كيفية امكانية هذا الأمر. في حين أصرت على أن المسيح كان بشرياً بالكامل، وإلهياً بالكامل، وتعمّدت حذف كل التعاليم التي أنكرت أياً من الطبيعتين، ولكنها لم تبيّن المقصود من ماهية البشري، والإلهي الذين وجدا في ذات الوقت.

الشكل الأبسط، والأكثر معقولية، هو أن يكون عقلاً إلهياً في جسد بشري، ولكن حتى هذا كان مرفوضاً؛ لأن أي كائن لا يمتلك عقلاً بشرياً لا يمكن تصنيفه على أنه كائن بشري. إشكالات سفسطائية متعددة اعتمدت، مثلاً: Appollinairs[٥٤] اقترح أن الكائن البشري يتألف من جسد وعقل وروح. وفي حالة المسيح فان العقل والجسد كانا بشريين، ولكن الروح كانت الرمز الرباني. ولكن حتى هذه الفكرة رفضت؛ لأن المسيح لو لم يكن يمتلك روحاً إنسانية، فهذا يعني مجدّداً أنه ليس إنساناً بالكامل. محاولات عديدة، بعضها ذكي، حصلت في فترة الجدلية المسيحية بين القرن الثالث، والتاسع ولكنها اعتبرت كلها هرطقة؛ لأنها فشلت في الانصاف بين الألوهية، والإنسانية في المسيح. هذه المحاولات تستمر في يومنا هذا، ولعل أكثرها الفاتاً للنظر في عصرنا نظرية ذي العقلين لتوماس موريس Thomas Morris، وغيره[٥٥]. لقد قمت بنقد هذه النظريات وأنا مستعد لنقدها مرة ثانية إذا كان أي من الكتّاب المشاركين يعتقد أن نظرية ذي العقلين مقبولة»[٥٦].

الا يمكن تجاوز كل هذه المشاكل من خلال فكرة الكنوسيس الإلهي؛ أي تجديد الذات في الألوهية؟ ألا يمكننا القول: ومن خلال فكر جامع لكل مدارس علم اللاهوت المسيحي، إنه بصيرورته رجلاً، افرغ الابن الإلهي نفسه من كل الخصائص الإلهية حتى

يصبح إنساناً كلياً وكاملاً؟ ولكن هذه النظرية التصورية كانت أيضاً محلا للانتقادات. هل يبقى الإله إلهاً إذا ما جرّد من الخصائص الإلهية؟ وبأي معنى يندرج التجسّد الإلهي في المسيح إذا افتقر الإله إلى عناصر العظمة الإلهية ــ على عكس ما قاله الخلقدونيون باستحالة الفصل ــ نقول: إن المسيح كان يمتلك بعضاً من الخصائص الإلهية، ولا يمتلك البعض الآخر. ولعل الإله الابن جرّد نفسه من هذه الصفات من الوجود، والعلم والحضور المطلق، ولكنه احتفظ ببعض الصفات الأخرى مثل الحب، الخير، المجد، الرحمة والعدالة من الضرورة ايجاد تفسير لكائن موجدٍ لنفسه أن يوجدَ نفسه. ولكن حتى أن يتمّ تفسير ذلك، فإن فكرة النصف الإلهي مشكلته الأساسية. كيف تكون صفات الأخلاق الإلهية مطلقة؟ وكيف للنوع المطلق أن يختزن في الكائن البشري المحدود؟! الكائن المحدود لا يمكن أن يحصل على الصفات المطلقة يجب علينا القول في المقابل: إن المسيح اختزن من الصفات الأخلاقية قدر ما يمكن اختزانه في حياة الإنسان المحدودة، وغير ذلك: «كل الكمال الإلهي يكمن جسدياً".

اقتراح التعدّدية فيما يتعلق بالتجسّد ويسوع:

لكن هذا الاختزال للألوهية نجده يتميز عن المفهوم التحرّري ليسوع كرجل كان جدّ منفتحاً جداً على وجود الإله، ومستجيباً جداً لإرادته التي استطاع تطبيقها على الأرض من خلال أفعاله المجسّدة.

التجسّد هنا استعارة كما قي قولنا: «إبراهيم لنكولن تجسّد لروح الاستقلال الامريكي» وهتلر مجسد للشر، وبهذا المعنى المجازي يمكننا القول:إنه بقدر ما يُنفّذُ أي مخلوق بشري ارادة اللّه، فاللّه مجسّد في عمل كل شخص، كلما تصرف بحب مع مريض بالجسد، أو الفكر، مع الضعيف، والمظلوم، مع اللاجئين والأطفال المنتكسين، مع الفقير المستعبد، أو المحروم المفجوع، والمحزون، بهذه المواضع يتجسد اللّه دائماً على الأرض.

بهذا المعنى، تصبح فكرة تجسد المسيح على الأرض معقولة، وليس بمعناها الحرفي، فالمسيح كان مكشوفاً جداً للوحي الإلهي مستجيباً له.

النوع المناسب لهذه العقيدة من الثالوث هو الذي تصبح فيه هذه المفاهيم الثلاثة بغير معناها الحاضر الآن، والمتمثلة بالوعي والإرادة، بل المفهوم القديم حيث شخص برسونا persona (هو دور يلعب على المسرح الروماني كان يضع الممثل قناعاً للدلالة على دوره في المسرحية) هكذا الأشخاص الثلاث، هم ثلاث طرق؛ حيث يكون الإله الواحد متمرساً بتعامله مع الجنس البشري كخالق، وكمحول، أو فاد وكروح باطنية. وليس هناك مذهب كفارة مشترط بالمعنى النظري حول كيفية تمكن اللّه من غفران ذنوبنا بموت يسوع؛ لأن يسوع علّمنا من خلال الصلاة الربانية أن نقترب من اللّه مباشرة، وكأنه أبونا السماوي، وأن نتلمسه ونتوقع المغفرة الإلهية بدون أي وسيط، أو تضحية مكفرة.

مجدداً، في حكاياته الرمزية عن الابن السخي المبذر، علمنا يسوع أن الإله يغفر بحرية، ويتقبل أولئك الذين يتوبون بإخلاص توبة نصوحة. عندما يعود الابن الضال الآثم بتوبة عميقة، فان والده لا يقول له: «لأنني مستقيم بالإضافة إلى كوني أباً محباً، لا أستطيع أن أسامحك حتى تكفّر عن ذنبك تماماً» لكن: «والده رآه، وأشفق عليه، وركض وعانقه وقبله...» وقال: «لنأكل ونمرح؛ من أجل هذا مات ولدي، وهو حي من جديد كان ضالاً واهتدى كان ضائعاً ووجد» (لوقا ١٥: ٢٠-٢٤)[٥٧].

في قصة الفريسيين وجائب الضرائب، الأخير وقف بعيداً، حتى أنه لم يرفع عينيه نحو السماء، لكنه ضرب صدره قائلاً: «ربي كن رحيماً بي أنا مذنب».

ثم قال يسوع: «أقول لكم، هذا الرجل نزل إلى بيته بريئاً من الأثم دون الآخر»[٥٨] (متى ١٨:١٣-١٤) مجدّداً، هناك اصرار من يسوع من خلال حضوره على إدخال المذنبين في رحمة الإله بخلاف المذاهب التقليدية، وذلك من خلال قبول توبتهم، وهو بهذا الأمر يريد أن يحقق رغبة اللّه بالرحمة من خلال التوبة: «اذهب وتعلم معنى هذا»: «أنا أود الرحمة، وليس التضحية»[٥٩].

وعلى خلاف التعاليم التقليدية، فكل هذا يتطابق مع التعدّدية الدينية، حيث يمكننا رؤية يسوع على أنه الشخص الذي جعله لنا اللّه حقيقياً، والذي أرانا كيف نعيش

كمواطنين في مملكة الرب، يسوع الذي يمثّل القائد الروحي الموقر، الملهم والمثل الأعلى، يمكننا أن نفعل كل هذا دون أن نضطر لأن ننكر على الشعوب الأخرى قادتهم الروحانيين، وقصصهم الإلهامية التي تعمل بنفس الطريقة من خلال تعاليم دينية مختلفة.

الهوامش:

(١) فيلسوف الماني (١٨٤٤ – ١٩٠٠).

(٢) فيلسوف انكليزي (١٨٧٢– ١٩٧٠) وعالم منطق ساهم في تطوير المنطق الرياضي.

(٣) مدينة قديمة من مدن بتينية في آسيا الصغرى عقد فيها مجمعاً دينياً دعا اليه الامبراطور مرقيانس بموافقة البابا لاون، وفيه اقرت صيغة ايمان هامة حددت وحدة اقنوم المسيح في طبيعتين: انسان كامل واله كامل، بلا اختلاط ولا تغيير، وبلا انقسام ولا انفصال. (معجم الإيمان المسيحي، الأب صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق بيروت ط ١ عام ١٩٩٤ ص ٢٠٥).

(٤) نسق من الآراء المبنية على احترام الانسان والاهتمام برفاهيته وتطوره الشامل، وخلق الظروف الملائمة للحياة الاجتماعية. وقد نشأت الأفكار ذات النزعة الانسانية نشوءا تلقائيا خلال الصراعات الشعبية ضد الاستغلال والخطيئة.

(٥) لمعرفة المزيد انظر كتابي: «الدين والمعرفة» النسخة الثانية، او كتاب: «الايمان الديني ونفوذ الكتاب المقدس» (١٩٧٣، دبرنت لندن، ما كميلين ١٩٨٨ اكسفورد. وان ورد ببلكيشن)

(٦) أعمال الرسل ٢٢/٢.

(٧) إذ كان اسرائيل صبيا احببته ومن مصر دعوت ابني.

(٨) اذ كانت كواكب الصبح ترنم جميعا، وكل بني الله يهتفون.

(٩) واذا تما ايامك واضطجعت مع ابائك واقمت من يليك من نسلك الذي يخرج من صلبك واقررت ملكه، فهو يبني بيتا لاسمي وانا اقر عرش ملكه الى الابد.

(١٠) قال لي انت ابني اليوم ولدتك.

(١١) قد بيّن لك أيها الانسان ما هو صالح وما يطلب منك الرب، انما هو ان تجري الحكم، وتحب الرحمة، وتسير بوضعك مع إلهَك.

(١٢) الاله الثاني في ثالوث الالهة في الديانة الهندوسية، وهو الاله الحافظ، وهو من الالهة الاكثر شعبية في الهند.

(١٣) التجسيد السابع للاله فشنو، وهو يعرف قلوب جميع الناس. في صدره يسكن الحلم، والحب والرحمة. ويعبد مع زوجته شيتا في كثير من مناطق الهند.

(١٤) يعتبر في بعض الاحيان الاله الاسمى في الديانة الهندوسية، واحيانا اخرى الاله الثالث في ثالوث براهما الاله الخالق، وفشنو الاله الحافظ وشيفا الاله المدمر.

(١٥) واحد من اكثر الهة الهند توقيرا وشعبية، يعرف في الديانة الهندوسية على انه التجسيد الثامن للاله فشنو.

(١٦) لوقا ٦ – ٣١.

(١٧) فيلسوف صيني (٥٥١ – ٤٩٧ ق.م) كان يرى ان مصير الانسان تحدّده السماء، وان الناس هم اما نبلاء، واما حقراء وعلى الصغار ان يخضعوا للكبار.

(١٨) مقولة من مقولات الفلسفة الصينية القديمة استخدمت في الفلسفة، لتدل على درب الطبيعة، وتعنى الطاو بالمثل، والمنطق، والعقل، والحجّة، وقد فسرت على انها السبيل المثالي لمعرفة الله.

(١٩) مصطلح في الديانتين الهندوسية والبوذية، وهو احيانا اله القانون أو الحق أو الصدق و... وفي البوذية هي حقيقة بوذا كما وردت في الكتابات المقدسة اي الحقيقة الكلية.

(٢١) ومتى جاء ابن الانسان في مجده وجميع الملائكة من قديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده ويجتمع امامه، جميع الشعوب فيميّز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه، والجداء عن يساره، ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي ابي، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تاسيس العالم؛ لأني جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني وكنت غريبا فآويتموني، عريانا فكسيتموني، مريضا فزرتموني، ومحبوساً فأتيتم، فيجيب الابرار حينئذ قائلين متى رأيناك جائعا فأطعمناك، او عطشانا فسقيناك، ومتى رايناك غريبا فأويناك، او عريانا فكسوناك، ومتى رأيناك مريضا او محبوسا فأتينا اليك، فيجيب الملك ويقول لهم، الحق اقول لكم انكم فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم.

ثم يقول ايضا للذين عن يساره اذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية المُعَدّة لإبليس، وملائكته؛ لأني جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، كنت غريبا فلم تأووني، وعريانا فلم تكسوني، ومريضا ومحبوسا فلم تزوروني، حينئذ يجيبونه هم ايضا يا رب متى رأيناك جائعا، او عطشانا، او غريبا، او مريضا او محبوسا، ولم نخدمك فيجيبهم قائلا: الحق اقول لكم بأنكم لم تفعلوا بأحد هؤلاء الاصاغر، فبي لم تفعلوه فيمضي هؤلاء الى عذاب ابدي والابرار الى حياة ابدية.

(٢٢) الذي يولد اعمى.

(٢٣) الفناء الروحي قي قمة التأمل في الفكر الديني الهندوسي، وهي حالة الاستنارة والتحرر في الديانة البوذية.

(٢٤) توما الاكويني (١١٢٥ – ١١٧٤) راهب دومينيكاني، من معلمي الكنيسة في اللاهوت والفلسفة المدرسية، اطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد، وانتقدها.

(٢٥) فيلسوف الماني (١٧٢٤ – ١٨٠٤) سخر من ولع معاصريه بالتصوف، وعمل على منهج استنباطي شكلي له كتب هامة في الفكر الفلسفي، اهمها: «نقد العقل العملي»، «اسس الميتافيزقيا والاخلاق».

(٢٦) كلمة سنسكريتية تعني الوجود؛ وهي تشير في الفكر الى العالم المرئي الذي نعيش فيه الذي يعتمد على العالم الآخر غير المرئي؛ اي نصف كرة الارض والسماء في مقابل نصفها الآخر العالم السفلي.

(٢٧) غريغوريوس النيصي شقيق القديس باسيليوس، كان نظري العقل، واحد كبار اللاهوتيين المتصوفين، ساعد على تقدم لاهوت الثالوث ولاهوت التجسّد توفي بعد ٣٩٤ ,

(٢٨) Gregory nyssa, against eunomius, 1.12

(٢٩) اوغسطينوس اشهر اباء الكنيسة اللاتينية (٣٥٤ – ٤٣٠) اعتنق المذهب الماناوى ثم عاد الى المسيحية، أنشأ جماعة .... له نظرية في القدر. من كتبه «مناجيات النفس»، «مدينة الله»، «في الثالوث».

(٣٠) ST Augustine, de vera retigione 76/36.

(٣١) لاهوتي وفيلسوف من اوائل المدرسيين، كان يعتقد ان الايمان يجب ان يسبق المعرفة، فعلى المرء ان يؤمن قبل ان يفهم، وعلى ذلك ان يقوم الايمان على اساس من العقل.

(٣٢) st anselm, proslogion, 15 .

(٣٣) Thomas aguinas, Summa contra gentiles 1:5:3 -1:14:3.

(٣٤) لقطنطيوس اصله من افريقيا الشمالية، له كتاب "المؤسسات الالهية" "وفيات المضطهدين"

(٣٥) هو احد اللذين اهتدوا الى الايمان المسيحي على اثر الخطاب الذي القاه القديس بولس باهل أثينا.

(٣٦) فيلسوف ايرلندي المولد نال تعليمه في سن مبكر، وعاش في فرنسا وعلى اساس الأفلوطينيّة المحدثة ابدع اعماله التي تميزت بالصوفية (٨١٥ - ٨٧٧).

(٣٧) عاون القديسة تريزا الآملة في اصلاح الكرملين (١٥٤٢ - ١٥٩١) من أشهر الصوفيين الكاثوليك، أعماله تعكس اختياراته الصوفية.

(٣٨) داع لحقوق الانسان والمساواة بين البيض والسود في الولايات المتحدة، أغتيل عام ١٩٦١.

(٣٩) الاله المحتجب في طبيعته.

(٤٠) Nicholas of cusa, de pace fidel, 7.21.

(٤١) فيلسوف يهودي في الاندلس، عاصر ابن رشد، امتاز بافلاطونيته المحدثة، ترك الاندلس في نهاية حياته، وانتقل الى مصر.

(٤٢) او بوذية العربة العظمى، وهي شعبة من البوذية المنتشرة في الصين، وكوريا، واليابان والتيبت وقد نشأت في القرن الاول للميلاد، وهي تدّعي تقديم تفسير جديد لتعاليم بوذا السماوي.

(٤٣) ان الاب الذي اعطاني هو اعظم من الكل فلا يقدر احد ان يخطف من يد الاب.

(٤٤) الذي رآني فقد راى الاب، فكيف تقول انت ارنا الاب؟!.

(٤٥) C.F.D.moule, The origins of christology (cambridge univ press 1977) p137.

(٤٦) Micheal Ramsay, JESUS and the living past (Oxford uni. Press 1980)pp 39- 43.

(٤٧) JAMES DUNN, chritology in the Making (LOUIS VILLE: west minstrer / JohnKNOX 1980/ London: S.C.M 1980) p60.

(٤٨) Canon Brian Ilbblethwaite, The Intercarnation (cambridge univ press 1987 p 74)

(٤٩) David Brown, the divine tinity (La Salle4: open court,1985/ London: Duck worth, 1985) p 108.

(٥٠) نفس المعطيات السابقة.

(٥١) ولكن تعلموا ان ابن البشر له سلطان على الارض ان يغفر الخطايا ثم قال للمخلع.

(٥٢) اما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها احد، ولا ملائكة السماوات الا الاب وحده.

(٥٣) لم يستطع ان يصنع هناك شيء من القوات غير انه وضع يديه على مرضى قليلين فابرأهم.

(٥٤) مطران هيرابوليس في فريجية في النصف الثاني من القرن الثاني. كتب أربعة دفاعات رفع أحدها إلى الامبراطور مرقص اويليوس. وكتب بعض الكتب الأخرى، رد فيها على الهراطقة، لم يبق منها إلا أجزاء قليلة.

(٥٥) Thomas Morris, The logic of God incarnate (Ithaca, N.Y: Cornell univ press 1986).

(٥٦) Jhon, Hik, The metaphor of God, incarnate, ch 5.

(٥٧) فقام وجاء إلى أبيه، وفيما هو بعيد رآه أبوه فتحنن، وأسرع، وألقى بنفسه على عنقه، وقبّله فقال له الابن: يا أبت قد قد خطت إلى السماء، وأمامك ولست مستحقاً بعد أن ادعى لك ابناً، فقال الأب لعبيده: هاتوا الحلة الأول والبسوه واجعلوا في يده خاتماً وفي رجليه حذاء، واتوا بالعجل المسمن، واذبحوه فنأكل ونفرح.

(٥٨) أما العشار فوقف عن بعد، ولم يرد أن يرفع عينيه إلى السماء، بل كان يقرع صدره قائلاً: اللهم ارحمني أنا الخاطىء، أقول لكم إن هذا نزل إلى بيته مبرءا الآخر؛ لأن كل من رفع نفسَه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع.

(٥٩) متى ٩:١٣.